دمشق في ديوان الأثري

الدكتور عدنان الخطيب

الشاعر وديوانه

إن قوارير الطيب إنما تغلو بقدر ما فيها من عطر ، والعطر يغلو مع ندرة الزهر الذي استخلص منه ، أفرأيت إلى قارورة من ذهب خالص ملئت بأغلى العطور ؟

بين يديّ الآن ما هو أثمن من أي قارورة طيب ، إنه ديوان صدر حديثاً ، تقرأ فيه شعراً بلغة سليمة مشرقة ، شعراً متألق القسمات ، فتان الرؤى ، يتيه بأبراد موشاة بأروع الصور ، تحسُّ معها صنعة من يتذوق الجمال ، ويحسن اختيار الألفاظ ، وتشمُّ وأنت تقرؤه شذى الريحان وعبق النرجس وأريج الياسمين .

إنه ديوان جديد ، ديوان شعر يعربي السمات ، في نشره فخر للعربية أي فخر ، وهو لعشاقها خمر ، وأية خمر تسكر بلا غول ولا إثم ،

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا هو ديوان «ملاحم ... وأزهار» لشاعر بغداد الكبير وذخر العربية الجليل الأستاذ **محمد بهجت الأثري**[١] .

لقد امتاز شعر الأثري بصفات بوّأته المكانة الرفيعة التي يحتلها اليوم بين شعراء العربية ، وهو الذي أغنى الأدباء والنقاد بشعره عن تعريف الشعر وبيان حقيقته ، فحدّد بنفسه معالمه ووصف سماته وعدّد بواعثه ، مشيداً بالنبيل من غاياته ومقاصده ، فاستهل ديوانه بقصيدة من عيون الشعر خطّها بيده ، سلمت يده ، وقال في مطلعها [٢] :

الشّعرُ ... ما روّى النّفوسَ معينُه ... وجرت برقراق الشّعور عيونُهُ
وصفَتْ كلألاءِ الضياء حروفُه ... وزهت بِوَضّاءِ البيان مُتونُهُ
متألِّق القسمات ، فتّان الرُّؤى ... يزهو صبا الفصحى الطّريرَ رصينُه
حرٌّ المذاهب ... لا يشوب أصولَه ... كدَرٌ ، ولا واهي اللغات يَشينُهُ
ابن الحقيقة والحقيقة نهجهُ ... والصدق في أربَ الحياة خدينُهُ
تجري على سَنَنَ الجلال خِلالُه ... ويرود أوضاحَ الجمال يقينُهُ
غِردٌ .. كصدّاحِ الكنار ،مُساوِقٌ ... نغمَ الطبيعة ، راقصٌ موزونُهُ

ويمضي الشاعر في تحديد أوصاف الشعر الأصيل ، ثم يتساءل في ختام قصيدته قائلاً :

---

(١) ظهر الديوان في أواخر عام ١٩٧٤ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وهو من منشورات وزارة الثقافة في جمهورية مصر العربية بتوصية من لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وقد كتب مقدمة رائعة له رئيس اللجنة شاعر مصر الكبير وفقيد العربية الأستاذ عزيز أباظة .

(٢) القصيدة في ثمانية وثلاثين بيتاً ، وهي مثبتة أيضاً بدءاً من الصفحة ٢٦٣ من الديوان .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أين الجديدُ البكرُ . . ليس بظالعٍ مشياً ، وليس بناصلٍ تلوينُه ؟
الواثبُ الرُّوحِ ، الأصيلُ شعورُه وخيالُه ، ونُزوعُه ، ويقينُه
تمتصّ من نبع البيان عروقُه ويجلّه إيقاعُه ، وَتزينُه
زاه بأبكار التخيّل ثوبُه لا غَورُه تتاشُه ، أو عونُه
يَستنّ سحرُ الحسن في أعطافه ويَتيه منه رقيقُه ومتينُه
وكأنّما سُقِيَ الرّحيقَ مُعَلَّلاً فتوَرّدت وجناتُه وعيونُه

إن شعر الأثري متعدد الأغراض متنوع المقاصد ، وديوانه « ملاحم.. وأزهار » سجل حافل بمختلف المقاصد والأغراض ، فمن شعر **النضال والجهاد** إلى شعر **الفخر والتغني بالمجد التليد** ، إلى **وصف الطبيعة ورسم الظلال** ، ومن شعر **الغزل** ووصف مختلف النوازع إلى **الرثاء وبكاء الأحباب**.

وما أنس لا أنس يوماً من أيام عام ١٩٤١ ، وقفت فيه في بغداد مع فتية أعدوا أنفسهم للاشتراك في حرب التحرير العراقية ، نستمع إلى الشاعر الأثري يخاطب العراق ، بصوت حمله الأثير إلى سمع الملايين في مختلف أرجاء الوطن العربي ، قائلاً من قصيدة طويلة (١) :

عمَزوا إباءَكَ ، فاضطرمت أباءَ وحشدت جوّك ، والثرى والماءَ (٢)
راموك للذُّلّ المقيم ، وقد مضى دهرٌ تسامُ به الشعوبُ سِباءَا

ثم عرّض الشاعر بالإنكليز ، الذين غلبوا على أعصابهم بسبب من هزائم جيوشهم أمام الجيوش الألمانية ، فقال :

يا ويحهمْ ! غُلبوا على أعصابهم فتحرّشوا بك سكرةً وغباءَا

ثم أشار إلى الجيش العراقي ، وإلى الجماهير التي تدفقت لتحيته ، قائلاً :

---

(١) القصيدة في ٤٦ بيتاً ومنشورة بدءاً من الصفحة ٨٤ من الديوان .
(٢) الأباء : بفتح أوله : القصب وهو سريع الاحتراق .

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أنظرْ إلى الأبطال كيف تواثبت ... وإلى الثّنايا كيف تُحْنَ وِضاءَا
وإلى الحميّة كيف أجّ لهيبُها ... وسرت كألسنة اللّظى حمراءَا
وإلى الجموع الهاتفات . كأنها ... تستقبل الأعراسَ والنّعماءَا

وختم الشاعر قصيدته قائلاً :

يا ساعةَ التّحرير ! عُرسُكِ قد أتى ... إنّ البشائرَ تُحْنَ والبشراءَا
سقياً ليومكِ في الزّمان ، فإنّه ... عن ليلة القدر الرّجيبّة ضاءَا

وخرجت بغداد يومئذٍ عن بكرة أبيها تلبي نداء الجهاد ، حتى إذا ما جرت الرياح بغير ما تشتهي السفن ، كان الشاعر الأثري في جملة من اعتقل ، وحمل إلى المنفى جزاء ما جرى على لسانه من دعوة إلى استخلاص حق مهدور وثورة على باطل قائم .

ولم يستكن الشاعر الحرّ ولم يهن ، بل رحب بالنفي وأخذ يهتف من أعماق سجنه في « الفاو[1] » للحرية التي ينشدها قومه بروائع من الشعر الخالد . وفي قصيدة منها يقول[2] :

مُبلِغي نفيي إلى « الفاوِ » الشطيرِ ... مرحباً بالنّفْيِ والسّجنِ الضريرِ[3]
مطمحُ الثّائرِ آفاقُ السّما ... وكذا مطمحُ رُوّادِ النسورِ
أتراه ، إنْ هوَى ، يُضرِعُهُ ... نبأ السجن وإيغالِ المسيرِ ؟

ثم يشير الشاعر إلى ما صنعه فكان جزاؤه النفي ، معتزاً بما قدّم شامخاً بأنفه لصدقه وإبائه قائلاً :

---

(١) الفاو : بلدة في أقصى الجنوب من العراق .

(٢) القصيدة تبلغ ٣٥ بيتاً وهي منشورة بدءاً من الصفحة ٩٣ من الديوان .

(٣) وصف للسجن الذي سدت نوافذه .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان شعري في مآسي أمتي عن أماني رسولي وسفيري
بين أيديها تغنّى ، ومشى بلْسمَ الجرْحى ومسلاةَ الصّدورِ
صادحٌ .. تُذكي أغانيه المُنى ، أو تُثيرُ الشوقَ في القلب الكسير
صدقَ الأمّةِ ، إذ غنّى لها رائدُ الأمّةِ ذو صدقٍ وخير
لم يزِغْ عنها ، ولم يكذب ، ولا سار في موكب مثْرٍ أو أمير

ثم يصيح الشاعر بسجانيه متوعداً :

لا أرى ثورتَنا أبعدَ من قاب قوسَيْنِ ، وتأتي بالثّبور !

وفي قصيدة أخرى هتف بها **للعزة الوطنية** من أعماق السجن فقال(١):

ألا في سبيل الله والوطن الغالي بعاديَ عن داري وعِرسي وأطفالي
عصافيرُ .. لا ساعٍ يروح عليهمُ سوايَ ، ولا راعٍ يحوط ، ولا والِ

ثم يستدرك الشاعر قائلاً :

ولكنَّ أوطاناً، نعمتُ بخيرها ، سأوثِرُها حتى على النفس والآل
إذا ورَّث الآباءُ أبناءَهم غِنىً فإنّي قد أغنيتُ بالمجد أنسالي

* * *

وإذا كان شعر الأثري يمتاز بجزالة اللفظ ومتانة الصياغة ، فإن من أهم ميزاته توافر « **الغنائية** » فيه ، فهو مطبوع بها وبجمال الصور ، وببراعة انتقاء الألفاظ مع عذوبة جرسها ، وكيف لا تكون « الغنائية » طابعاً لشعر الأثري ، وهو القائل في أحلك ليالي محنته من قصيدة عنوانها « سأغنّي .. وأغنّي »(٢) :

(١) تبلغ أبيات هذه القصيدة الثانين ، وهي منشورة بدءاً من الصفحة ٩٧ من الديوان .

(٢) القصيدة في ٢١ بيتاً ، وهي منشورة بدءاً من الصفحة ١١٤ من الديوان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دولةٌ ضاقتْ بفرد ، واتّقتْهُ بجنٍّ ؟
أحرامٌ أن يطير الطّيرُ من غصنٍ لغصن ؟
عجباً .. والرّوض روضي زاهياً ، والوكن وكني
أنا للحريةِ — الدّهرَ — أغنّي ما أغنّي
ما لهم قد نقموا منّي تغريدي ولحني ؟
وابتغوا ذلّي وإسكاتي بنفيي وبسجني
سأغنّي .. كلما يُنْكأُ جرحي ، وأغنّي
ليس بالحُرِّ الذي يجزَع ، أو يبكي لغبن

* * *

دمشق في الديوان

الشاعر في ديوانه واضح الاتجاه في الدعوة إلى التمسك بمبادىء الإسلام، شديد الاعتزاز بقومه والفخر بعروبته ، تراه في الكثير من شعره يتغنّى بمحبة الأوطان ويشيد بوحدة الأقطار العربية ، وهو يستحثّ قومه على النضال في سبيل إنقاذ بيت المقدس واسترداد فلسطين .

ويبرز ، في زحمة الأغراض التي نظم فيها الشاعر وجه دمشق مشرقاً متلألئاً ، إذ ينزلها من نفسه منزلة خاصة ، يتغنّى بمفاتنها ويشيد بأبنائها وقد أصفوه الود ، ومنحوه من حبهم وإجلالهم .

أتيحت للشاعر فرصة زيارة دمشق للمرة الأولى ، وهو في عنفوان شبابه لم يجاوز العشرين إلا قليلاً ، كان ذلك في صيف سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) ، وكان اسم الأثري قد سبقه إليها بفضل علمه وأدبه وماقدمه به أستاذه علامة العراق الكبير محمود شكري الألوسي أحد أعضاء المجمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العلمي العربي القدامى ، فلقي الشاعر الشاب من رئيس المجمع ومن أعضائه والشباب من أدباء دمشق الحب والتقدير .

كانت دمشق يومئذ حفية بأمير الشعراء أحمد شوقي ، فهيىء للأثري أن يكون في عداد المدعوين إلى حفلات التكريم ، فإذا به يلفت بأدبه وحسن روايته قلب أمير الشعراء ، فقربه منه وجعله موضع رعايته ، مما ترك أعظم الأثر في نفسه ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣٢ نعي أحمد شوقي ، فجاشت الذكريات في نفس الأثري وذكر دمشق لأول مرة في شعره المنشور ، فقال من قصيدة يرثي بها أمير الشعراء (١) :

وكلٌّ قريضٍ غير ما أنتَ قائلٌ ... أحِسّ كأني منه في السَّبَرات
وما نقموا إلاّ غناءَك بالهدى ... حثيثاً ، وإلاّ هدمَك الشُّبُهات
وبعثك أمجادَ العروبة في ثرى ... (دمشقَ) وفي (الحمراء) مؤتلقات
رزانتَ حصاةً ، فاعتدلت مقالةً ، ... وأنصفت مجداً جلّ عن غمزات

ثم ذكر اجتماعه به على ضفاف بردى وما خلفه في نفسه من أثر طيب فقال :

ألا لستُ أنسى منك مجلسَ حكمة ... على (بردى) قد مرّ مذ سنوات
أخذتَ هوى نفسي ببشرك طافحاً ... وآنستني باللطف والبسمات
ومنّيتُ نفسي بعده باللقاءة ... تروّي جناني أو تبلُّ لهاتي
ولكن أبتْ أيامنا غير ما ترى : ... فراقَ حبيبٍ ، وانطفاءَ حياةِ !

وفي آذار سنة ١٩٣٦ زار وفد من النواب العراقيين مصر ، فأقام السوريون المقيمون في القاهرة حفل تكريم احتفاءً بهم ، أنشد الأثري

(١) القصيدة طويلة في ٧٨ بيتاً ومنشورة بدءاً من الصفحة ٢٤٩ من الديوان .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيه قصيدة أشاد فيها بالوحدة التي كانت الأمل الذي يدغدغ النخبة من مفكري العرب في مختلف أصقاعهم ، قال فيها (١) :

شهد الله . لم تكن « مصرُ » إلا بنت « عدنان » دارةً وقبيلا
اسأل الضادَ .. من رعاها حقوقا؟ واسأل الذكر .. من سقاه أصولا
لمست في نداء « بغداد » روحاً يعربيّاً فأوسعته قبولا
تلك « بغداد » في ذراها و « نجد » وبلاد « الشآم » عرضاً وطولا
إن ما كان أمسِ حلما تجلّى واقعياً ، وصدّق التأميلا
يكذبُ المرجفون .. ماثمّ إلا أمّةٌ ، وُحّدتْ هوىً وسبيلا

ومرّ وفد النواب العراقيين ، العائد إلى بغداد ، بدمشق وكانت في محنة من المحن التي انتابتها خلال الاحتلال الفرنسي ، فوقف الشاعر في حفل تكريم أقيم للوفد ينشد الأبيات التالية (٢) :

أفقنا على صوتٍ يروع مجلجل فقلنا : دمشقُ الشام في القيد تزأرُ
يحزّ بساقيها الحديدُ ، ومالَه إذا هي لم تغضب على القيد ، مكسِرُ

ونسب الشاعر دمشق إلى معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية في الشام وتساءل قائلاً :

معاويةٌ .. لم تعرف الذلّ ساعةً فكيف على الذلّ المطاول تصبر ؟
أسيّدةٌ يستامها العلج مركبا من الذلّ ؟ هذا الحادث المتنكّر !

---

(١) القصيدة في ٤٣ بيتاً منشورة بدءاً من الصفحة ١٨٦ من الديوان تحت عنوان « أمة وحدت هوى وسبيلا » .

(٢) القصيدة في الصفحة ١٩٠ من الديوان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم أشار الشاعر إلى جنات دمشق ينعم بها المستعمر المحتل وأهلها بين منفي ومشرد فقال :

بنفسيَ من جنّات عَدْنٍ خمائلاً على «بردى» من نعمة الحُسن تُزهر
أيطرقُها من مارد الإنس عابثٌ ويغمرُها من ماثر النقع أكدر ؟
وداغلُها في كلّ روضٍ منَعّمٌ وآهلُها في كل منفىً مُغوّرُ

وختم الشاعر قصيدته بحثّ العرب في مختلف أقطارهم على الاتحاد والتمسك بمبادىء الإسلام قائلاً :

لعمرُ العلى لن يبلغَ «العربُ» العلى وهم فِرقٌ شتّى وشملٌ مدمّر
ألا فاسلكوها وحـدةً عربيّةً لهامن هُدى الإسلام روحٌ ومظهر

* * *

وليس من عجب في أن نرى الشاعر ، الذي أحب دمشق وأهلها وافتتن بطبيعتها وجمالها وغرد مع بلابلها وغنى مع خرير مياهها ، يسجل لهذه المدينة صنيعها ، يوم زحفت لتودع ياسين الهاشمي ابن بغداد ، وقد ضنت حكومتها على ثراها أن يضم رفاته ، فحنت عليها دمشق ، وكرمت جهاده في سبيل العروبة والوحدة العربية ، وجعلت مثواه في أكرم بقعة منها إلى جانب بطل الإسلام منقذ القدس صلاح الدين الأيوبي . قال الشاعر (١) :

---

(١) من قصيدة طويلة عنوانها « ملحمة الانقلاب الشعوبي » أنشدها في احتفال كبير مشهود ، أقامه الساسة المخلصون ببغداد في سنة ١٩٣٧ ، بعد أن دال الحكم الشعوبي الذي دهم العراق في أواخر عام ١٩٣٦ ، وشاركت فيه — إلى جانب ساسة العراق وخطبائه الوطنيين وفود رسمية وشعبية من الأقطار العربية ، بينها نفر من أعيان الخطباء وكبار الشعراء . والقصيدة في ١٢١ بيت ، وقد نشرت في الديوان بدءاً من الصفحة ٧٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بات « العراقُ » على شجوٍ يكابدُه ... رهنَ السَّلاسل ، يشكو ليلَ محيارِ
وباتتِ « الشّام » في أوجاعِ مكتئبٍ ... يمشي بها الحُزن في سهلٍ وأوعارِ
شجا « بني عبدِ شمس » أن مضى قمرٌ ... من « هاشم » لم يخنهُ كسفُ أنوارِ
كأنَّ « مروانَ » خلف النعش من جزعٍ ... أصيب في ملكه الغالي بمُنهارِ
من حوله زمرُ الأملاك في حشَدٍ ... كأنّما هي في تشييع « عمّارِ »
في موكبٍ يحيرُ الأبصارَ مائجُه ... تخالُه طافياً في دمعه الجاري
كلُّ البلادِ مناحاتٌ وأرديةٌ ... سودٌ على أبيض الأثواب معطارِ
ملهوفةٌ ، تتوافى للعزاء بـه ... قوافلاً بين وُرّادٍ وصُدّارِ

* * *

لئن حُرمتَ ثرى « بغدادَ » تنزلُه ... وما كمثلِ ثراها طيبَ أبشارِ
لقد نزلت ثرى أهلٍ ذوي رحمٍ ، ... كرُمْ فرف الخلد .. لم يدنسْ بأوضارِ
زاكٍ ثوى السُّمحاءُ الطّاهرون به ... من كلِّ خيِّرِ قومٍ وابنِ أخيارِ
من نازليه « صلاحُ الدّين » .. أيُّ فتىً ... صانَ الحِمَى من صليبيين خُتّارِ
جاورتَهُ ، فتباهَى أنْ غدوتَ له ... جاراً ، ويفرحُ مِسعارٌ بمسعارِ (١)
جارانِ .. فاخرتِ « الشّام » السّماءَ بأنْ ... باتا بها قمرَيْ سارينَ نُظّارِ
يُستهديانِ إلى سُبْل العلى أبداً ، ... فيهديان ، وما هادٍ كغرّارِ
يُريد للخيّرينَ الأرذلونَ أذىً ، ... ويُكرمُ الخيّرينَ الخالقُ الباري

* * *

تعددت زيارات الشاعر لدمشق يقضي فيها فصل الصيف ، يتمتع بهوائها العليل وبمناظرها الخلابة متنقلاً بين رياضها ومنتزهاتهـا محاطاً بنخبة

(١) مسعار : شجاع يسعر الحرب دفاعاً عن قومه .

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من أبنائها المقدرين لفضله وأدبه ، حتى إذا كان صيف سنة ١٩٣٩ أقام الأستاذ الرئيس محمد كرد علي حفل تكريم للشاعر ، **وكان المجمع العلمي العربي قد انتخبه عضواً فيه** ، وفي هذا الاحتفال أنشد رائعته في « دمشق » (١) :

مَنْ عذيرٌ من الهوى ومجيرُ ؟ فضحَ الشوقُ ما أجنَّ الضميرُ
أنا في قبضة الجمال . . فخودٌ تستبيني ، وروضةٌ ، وغديرُ

وبعد هذا الاستهلال الرائع الذي غلب الشاعر فيه شوقه إلى دمشق وبواعث حبه لها ، أخذ يصف مفاتن الطبيعة فيها والجمال الآسر قائلاً :

هذه « جِلَّقٌ » .. تبارك ربّي ! بـلدٌ طيّبٌ ، وربٌّ غفـورُ
الهوى ، والهواء ، والجدول الرّقـ راقُ ، والروضُ ، والسنا ، والحورُ
حيثُما تغتـدي ، فروضٌ أريضٌ عنبريُّ الشّـذا ، ومـاءٌ نميرُ
وظـلالٌ ممدودة وهي تنـدى وشعـاعٌ يرفُّ وهـوَ منيرُ
من سنَا الشمس فوقها ومن الزّهـ ـرِ . . دنانيرُ عسجدٍ ، وعبيرُ

ويبدع الشاعر في وصف جو دمشق وما تورثه في نفوس عشاقها قائلاً :

يُقْتَلُ القيظُ في ذَراها . ولكنْ في ذَراها يحيـا الهوى ويسورُ
جئت آوي من الحَرُور إليهـا فإذا في الحشا يَشِبُّ الحَرورُ
أنا . . منها ، ومن مَهاها اللواتي يَتَقَتَّلْنَ رقّـةً ، مسحـورُ
كلُّ بيضاء في لواحظَ سُودٍ رَفَّ في خدها الدمُ المُستجيرُ
في قوامٍ لَدْنِ المَجَسّةِ ريّا نَ ، وخصرٍ من الضنى يستجيرُ
وصِباً ناضرِ الشّباب . غذاه ترفُ العيش ، والنعيمُ الوثيرُ

(١) القصيدة منشورة في الديوان بدءاً من الصفحة ٣٢٤ .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأديمٍ مُنَعَّمٍ في جبيـر ... يُوهِمُ المـينِ ماؤه والحَبيرُ
لمَعا .. كالسَّراب شَفَّ ، فلم تَدْ ... رِ أمـاءٌ لألاؤهُ أم نور ؟
تنفثُ السِّحرَ في الحَليْ فيَشْجي ... وتُثيرُ الهـوي بـه فيثورُ
ولقد زانها النفُورُ ، وحسُن الـ ... حُسنِ في الغادةِ العَرُوبِ النفُورُ
كرَّمَ اللهُ وجهَ كلِّ نوارٍ ... صانَها الطهرُ والحياءُ الوَقورُ
لِيَ من هيكل الجمال المعاني ، ... ولغيري ألفاظُهُ والقشـورُ

يمضي الشاعر بعد هذا الوصف البديع لما فعله الجمال في نفسه ، إلى تحديد منتزهات دمشق التي ملكت عليه لبَّه فيقول :

وطنُ العُربِ ، جنَّةٌ ..ودمشقٌ ، ... رفرفٌ أقدسُ الطـافِ طهورُ
شرِقَتْ بالرُّوءى مسارحُها الخُضْـ ... ـرُ ، وروَّى نعيمَهُنَّ السُّرورُ
رُبَّ نادٍ ، تَخِذتْه في الرَّوابي ... أقرأ الحسنَ منه وهو سُطورُ
فعلى « الغُوطتَينِ » والشمسُ تبدو ... وعلى « النيرَبَيْنِ » وهي تغورُ
فإذا « جِلِقٌ » رياضاً ودوراً ... كالمصابيح حفَّهـا الدَّيجور
عالمٌ .. من زَبَرجَدٍ ، طاف بالـ ... ـدُّرِّ ، وذكاه بالرُّواءِ النُّثورُ
ساجِرُ المُجتلَى . أطلَّ عليه ... « قاسيونٌ » كأنَّهُ مذعورُ
يغرق الحِسُّ في سناه ، ويفنى ... في تهاويل سحرهِ التفكيرُ

ويصف الشاعر ليالي دمشق بعدئذٍ فيقول :

أنا إن أنسَ لستُ أنسى لياليْ ... إذ البدرُ ضاحكٌ والثُّغُور
وكأنَّ الأكوانَ في دافق النُّو ... رِ بُحُورٌ قـد أغرقتها بُحورُ
يمرَحُ القلبُ في سَناها كما يَمـ ... ـرَحُ في الماء سابحاً عُصفورُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد تفرَّدنَ بالصَّباحة ، لولا وجنَاتٌ نازَعْنَها ونُحورُ

ثم يخصّ الشاعر ما حبا الله دمشق من طبيعة فاتنة بهذه الأبيات :

حبّذا « الشّامُ » ماؤها وهواها وَمساري أنهارِها والقُصورُ
وميادينُ حسنِها وهيَ شتّى ومغاني اللذّات وهيَ كثيرُ
جادها الغيثُ من معاهدَ .. لا اللُّطـ ـفُ عداها ، ولا النعيمُ الخبيرُ
محَسنات الأوقاتِ ، حتى ضُحاها وشَحيّـهُ بلُطفِهِنَّ البُكورُ
وبنفسي خريرُ أنهارها السَّبـ ـعةِ دوّامةً عليها الطُّيُورُ
تتلوّى كالأينِ ريعَ ، وتهتـ ـزُّ ارتعاشاً ، وترتمي ، وتمورُ
وَهيَ آناً في السَّهلِ تعدو ، وآناً في الرّوابى المسلسلاتِ تُغيرُ
تغمُرُ الغُوطتَينِ ، بشراً وزهْواً مثلما يغمُرُ النفوسَ الحبورُ
وعلى صوتِها الطيورُ تَغنَّى رُبَّما يُطرِبُ الطيورَ الخريرُ
عشِقتْ لحنَهُ ، والماء لحنٌ يُسكِر السَّمعَ جَرسُهُ المخمورُ
حيثُ تغدو يُلهيك منها سَماعٌ ومن الرّوض مؤنِقٌ منضورُ
عُرسٌ .. قام للطّبيعَةِ فيها يستخفُّ الإنسانَ وهوَ وَقورُ
تهزجُ الطّيرُ والأناسيُّ فيه ، ويمورُ السَّنا ، ويذكو العَبيرُ

وبعد هذا الوصف المترف لجنات دمشق وأنهارها وغناء طيورها ، يقف الشاعر لحظة ويقول :

قِفْ تَمتَّعْ مما تراه قليلاً ، وقليلٌ مِمّا تراه كثيرُ
للأنوف الشّذا أريجاً ، وللسَّمْـ ـعِ الأغاني ، وللّحاظ البُدورُ !

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحين كانت أعراس الشام سنة ١٩٤٧ ، بعد أن مضى عام كامل على جلاء المستعمر عن ثراها الطيب ، أحب شاعرنا الكبير أن يهنيء دمشق في أعيادها ويشكر لأبنائها حفاوتهم به ، فأعدّ خريدته « دمشق .. في ذكرى الجلاء(١) » وأنشدها في « دار المجمع العلمي العربي » :

يانسمةً خطرت من أرض «جَيْرون» حُيِّيتِ عاطرةً ، جاءت تُحيّيني
بكرتِ ، والفجر في أوضاح فاتنةٍ تبرّجت لفتىً هَيْمانَ مفتونِ
هل أنتِ للوافد المشتاق حاملةٌ من رَوْح أهلك أنفاسَ الرَّياحينِ ؟
اللين واللطْف والرِّئْ التي انبعثت رُسْلُ الأحبة تلقاني وتدعوني
« بنو أميَّةَ » .. مازالوا كما خُلِقوا بني المكارم والآداب واللينِ
لاقيتُ منهم كلألاء الضُّحَى غُرراً هشّت إليّ تُحيّيني وتُحْيِيني
من كلّ ناصيةٍ زهراء لامعةٍ كعَسْجَدٍ ، تحتَ وقْدالشمس ،مفتونِ
أصبحت فيهم تَهاداني سَراتُهُم كأنني مُصْحفٌ في بيت ذي دينِ
أنا المُفَضَّلُ بالنُّعمى ، ومن عجبٍ أن جاء يشكرني من بات يَقْريني
عُوِّدتُ كلّ جزيلٍ من فواضلهم قِدماً ، وكلّ ودادٍ غير مظنونِ
أنا الشّكورُ على ماقد خُصصْتُ به من الأيادي ، وما شكري بممنونِ
سيذكر الدهر عني كلّ سائرة من الثنـاء عليهم في الدواوينِ
قد أوسموني إجلالاً وتكرِمةً فجئت أوسمهم مدحي وتلحيني

ثم غفر الشاعر للدهر مالاقاه من صروفه ، تكرمة لدمشق ذاكراً مقامه في جبل قاسيون المطل عليها ، واصفاً روعة تلك المناظر قائلاً :

---

(١) القصيدة منشورة في الديوان بدءاً من الصفحة ١٩٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غفرتَ للدّهر أياماً .. سلفنَ له ... لمّا أتاني في «الفيحاء» يُشكيني
لي في خمائلها الخُضر التي حسُنت ... عُليا المقاصير من سُكنى الميامين
من تحتها «بَرَدَى» نشوانُ مُطّرِدُ ... بدافق من رَحيق الخُلد مَضْنُوني(١)
كأنّه ، وشعاعُ الشمس يضربه ... فِرَنْدُ سيفٍ صقيل الوجه مسنونِ
تنضّرت حوله الدّنيا به ، وزهت ... بزخرفٍ من لباس الحسن مَوضونِ
ماأجملَ الأيْكَ في شطّيْه حانيةً ... من الحفاوة في أثوابها الغينِ
تلك المفاتنُ .. شاقت كلُّ ساجعة ... فهيجتها بألحانٍ أفانينِ
أكرمْ به مُنبتاً زهراً ، وفاكهةً ... شتّى ، ومُسْدي خيراتٍ وماعونِ

ثم تساءل الشاعر عن مفاتن دار النعيم التي تخلو منها دمشق قائلاً :

أيُّ المفاتن في دار النعيم . . خلت ... منها «دمشق»؟ وأيُّ الرَّبْرَبِ العينِ؟
خميلةُ الله . . ما اهتزّ الثّرَى طرباً ... بمثل ما طاف فيها من تزايينِ
كلٌّ ضحوكٌ على ضاحي مَشارفها ... زَهْرُ السماء وأزهارُ البساتينِ
كأنّما الجوّ ، إذ يندى بها عبقاً ، ... لَطيمةٌ نُشِرَت من عطر «دارينِ»(٢)

ثم هنأ الشاعر دمشق بجلاء الغاصب عنها قائلاً :

يادارَ «مَرْوانَ» .. دامَ البِشرُ مؤتلقاً ... على جبينك لمّاحَ التلاوينِ
كرُمتِ مجدَكِ أنْ لمْ تَعقِدي عَلَماً ... إلاّ على فَرْقِ برٍّ منكِ ميمونِ
ستذكر الدّولةُ الرّعناءُ مُعْتَرِكاً ... تَمَضُّ منه يَدَيْ نَدمانَ محزونِ

---

(١) مضنوني : نسبة إلى « مضنونة » ، وهي بئر زمزم في بيت الله الحرام بمكة .

(٢) اللطيمة : وعاء المسك . دارين : فرضة « ميناء » بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

خرجتِ منه كنصْلِ السيف منصلتاً ... يزهو ، وباءت بخذلانٍ وتوهينِ
ياليت عينيَ ، لما أجليتْ ، شهدت ... بِشْرَ الجِنانِ بإجلاء الشياطينِ
من كلّ أصهبَ.. كان الكِبرُ شارته ... يرمي ببنيكِ بطرفٍ منه مسنونِ
فنكّسَ اللهُ بالإذلال هامته ... وعاد خزيانَ يمشي مشيَ مغبونِ
لا يرفعُ اللحظَ إلا وهوَ يخفضُه ... أعجِبْ بلحظ..بخدّ الأرض مقرونِ

وأنهى الشاعر قصيدته مخاطباً دمشق داعياً إياها إلى التمسك بعروبتها وإسلامها لتصون جمالها الذي يفتديه بنفسه قائلاً:

ياحُرّةً .. لم تدنْ يوماً لآسرها ... ويافتاةَ المطاعيم المطاعينِ
إنّ العروبة والإسلامَ .. مافتئا ... هنا بواديكِ في عزٍّ وتمكينِ
في جبهة الفلكِ الأعلى مقامُهما ... منه ، وفي مربأ الشمّ العرانينِ
هما جناحاكِ .. مدّ اللهُ ظِلّهما ... على البريّة من دنيا ومن دينِ
صُوني جمالكِ في الدّنيا بسرّهما ... يصنْكِ من دَرَكاتِ الخسفِ والهونِ

* * *

مايبتغي «الغربُ» من فيحاءَ وارفةٍ ... تميش في كنفٍ للدّهرِ مأمونِ ؟
شمّاءُ .. ما يبنيها غيرُ مأبيةٍ ... على الدّنايا ، وهمات السلاطينِ
وقتْ «دمشقَ» الرّزايا رحمةٌ برأت ... «دمشقَ» من نفحات اللطف واللينِ
نفسي فداءُ جمالٍ .. طالما نعمت ... نفسي به في ليالي عيشيَ الجُونِ

ولما وقعت حرب حزيران سنة ١٩٦٧ ، تفجّر الألم الذي استولى على الشاعر قصيدةً طويلةً ذكر فيها دمشق مشيداً بجهادها مشيراً إلى دخول القائد الفرنسي «غورو» مدفن صلاح الدين الأيوبي ومخاطبته الضريح قائلاً:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« نحن حفدة الصليبين هنا ياصلاح الدين » . قال الشاعر(١) :

وأين في « الشام » « غورو » في جحافله ... يَغير وهو يـــدُكُّ السِّلم تذليلا ؟
بل أين في « القدس » « أللنبي » وقد رعبت ... رعودُه جنباتِ « القدس » توهيلا(٢) ؟
نشوان من صلفٍ ، ءالآن من حنق ... يجـــرُّ سيفاً على الغبراء مصقولا
ياشـاهرَ السـيف مزهواً بباطله ... وعارضَ الجيش بعد الجيش تحفيلا
خلِّ الغرور . . فإن الحقّ مابرِحت ... شَباهُ تُرجع حـدّ السيف مفلولا
قضى له الله بالعُقبى . . إذا صحب الـ ... إيمانَ والصبرَ ، وعداً منه مكفولا
يرمي به باطلاً منـه فيدمغُــــه ... يا . . طالما دمّغ الحقّ الأباطيلا
إنّ الحروبَ سجالٌ بيننا أبـداً ... كأنهـا الدَّينُ في اللأواء ممطولا
إن لم تكونوا لنا سلماً ، نكن لكم ... حرباً . . تبادركم بالموت تعجيلا
إنّا سنلحق بالماضين حاضرَكم ... ممن يجيءُ حنيقَ الصدرِ منكولا
لنصبرنّ كآباء لنا صـبروا ... صبراً . . يُعيد سوادَ الليل تحجيلا
نحن الجواهر . . ماهانت معادننا ... على الزمان كماةً أو معازيـــلا

* * *

هذا هو الشاعر البغدادي الكبير الذي محض دمشق الخالدة الحبّ كله ، وهذه هي دمشق بجمالها ومفاتنها تزينها غلالة من حب الشاعر وإعجابه .

---

(١) من قصيدة طويلة جاوزت ١٠٠ بيتاً عنوانها : « حرب حزيران ١٩٦٧ » وهي منشورة في الديوان بدءاً من الصفحة ١٦٣ .

(٢) أللنبي قائد الجيش الانكليزي الذي فتح القدس في الحرب العالمية الأولى ، وقال في معرض الفخر : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن شعر الأثري نموذج حديث للشعر العربي الأصيل في ألفاظه المنتقاة ولغته المشرقة وأسلوبه القويم وجرسه المطرب. وشعره في دمشق خير دليل على ما حبا الله الشاعر من رهافة الحس ورقة الشعور وتذوق للجمال، ودليل ناصع على مايملكه الشاعر من أدوات استطاع معها الابداع في وصف الجمال وتصوير مايفعله في نفوس المحبين.

حفظ الله شاعرنا الكبير ذخراً للضاد أم اللغي .

وحفظ الله دمشق مصدراً للحب والإلهام .

عدنان الخطيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net